

THE REALISTIC APPROACH AND THE THEORY OF COMMITMENT IN ARABIC LITERATURE THE NOVEL 'THE LAND' BY ABD AL-RAHMAN AL-SHARQAWI AS AN EXAMPLE

المنهج الواقعي ونظرية الالتزام في الأدب العربي، رواية "الأرض"

لعبد الرحمن الشرقاوي نموذجاً

Hajar Bariazⁱ & Nurhasma Muhamad Saadⁱⁱ

ⁱ PhD Candidate, Faculty of Major Language Studies, Islamic Science University of Malaysia, Nilai, Malaysia.
hajarbariaz@gmail.com

ⁱⁱ Senior Lecturer, Faculty of Major Language Studies, Islamic Science University of Malaysia, Nilai, Malaysia.
nurhasma@usim.edu.my

Abstract

This study aims to analyse the novel "The Land" by the Egyptian novelist Abd al-Rahman al-Sharqawi and explore the manifestations of realism and the theory of commitment in its artistic structure. It also examines how the novel embodies the meanings and concepts of socialist realism in literature, particularly in terms of the writer's commitment to his people's struggles, aligning with his class. The study also delves into the novel's themes, al-Sharqawi's choices regarding characters, settings, and dialogue, and the narrative's construction of class consciousness among the peasants in their conflict with the landowners. Since literature's connection with the environment that produced it means that the novelist is embedded in his society, the study of "Al-Ard" reveals the author's commitment to writing about a specific period in his country's history. This was a time when the peasants suffered, were imprisoned, and had their lands confiscated. The novel "The Land," published in 1954, was chosen for the study due to its incorporation of elements of socialist realism in literature and the theory of commitment. The author takes a stance on a specific period in his country's history, marked by its conflicts and the suffering of the oppressed working class. Al-Sharqawi presents the class struggle and aligns himself with the peasants and workers, aiming to inspire all the oppressed and exploited classes in his country and in the world within the framework of his intellectual and literary project dedicated to serving the causes of freedom, justice, dignity, and rights. The study describes and analyses the manifestations of socialist realism in the novel, which are represented through class exploitation, the revolutionary struggle of the peasants, and the representation of the positive protagonist. Furthermore, it discusses how the novelist is committed to portraying the reality of the downtrodden classes by analysing the novel's themes, characters, dialogues, and time and space settings. The results of the study show that the narrative in "The land" is committed to portraying the reality of the peasants' connection to the land, which serves as a battleground in their conflict with the landowners, a conflict that makes the novel's reality a dynamic one driven by the struggle for interests and the necessities of revolution. This is a call made by socialist realism, and al-Sharqawi was a writer, narrator, and character within this conflict, declaring his class affiliation and his support for the peasants and the causes of freedom, justice, and dignity, committed to upholding the significance of human will and its struggle within the collective class framework for shaping destiny based on historical materialism.

Keywords: Realistic Approach, Theory of Commitment, Arabic Literature, Novel 'The Land', Abd al-Rahman al-Sharqawi.

ملخص البحث

تهدف هذه الدراسة إلى تحليل رواية "الأرض" للروائي المصري عبد الرحمن الشرقاوي، والبحث عن تجليات الاتجاه الواقعي ونظرية الالتزام في بنائها الفني، وتجسيدها لمعاني ومقتضيات ومفاهيم الواقعية الاشتراكية في الأدب، من حيث التزام الكاتب بمعارك شعبه والتحامه بطبقته. كما تحلل الدراسة موضوع الرواية واختيارات الشرقاوي للشخصيات والفضاءات والحوار، وما انتسج في البناء الروائي من معاني الوعي الطبقي لدى الفلاحين في صراعهم مع الإقطاع. ولأن ارتباط الأدب بالبيئة التي أنتجته يعني اندراج الروائي في مجتمعه، فإن تناول رواية "الأرض" بالدراسة سيكشف عن التزام الكاتب بالكتابة عن فترة زمنية عاشتها مصر في تاريخها، وهو الزمن التاريخي الذي اعتمده عبد الرحمن الشرقاوي في الرواية، الزمن الذي عانى فيه الفلاحون وجاعوا وسجنوا وصودرت أراضيهم. وقد تم اختيار رواية "الأرض" التي صدرت عام ١٩٥٤ للدراسة لاحتضانها معطيات المدرسة الواقعية الاشتراكية في الأدب ولنظرية الالتزام التي تتوضح فيها من خلال اتخاذ الكاتب موقفاً من فترة معينة من تاريخ بلده عاشها بصراعاها وتناقضاتها ومعاناة أهلها من الطبقة الكادحة المقهورة، وكشف عنها في طرحه لموضوع الصراع الطبقي وانحيازه لطبقة الفلاحين والعمال هادفاً إلى تنوير كل الفئات المقهورة وكل الكادحين المضطهدين المستغلين في بلده وفي العالم، وذلك في إطار مشروعه الفكري والأدبي المتكامل الرامي إلى خدمة قضايا الحرية والعدالة والكرامة والحق. وتقوم الدراسة بوصف وتحليل تجليات الواقعية الاشتراكية في الرواية والمتمثل في الاستغلال الطبقي والكفاح الثوري للفلاحين وتمثيلات البطل الإيجابي، كما تصف الدراسة تجليات التزام الروائي بواقع الطبقات المسحوقة، وذلك من خلال تحليل موضوع الرواية وشخصياتها، وحواراتها وفضاءاتها. وقد أظهرت نتائج الدراسة التزام الخطاب الروائي في "الأرض" بنقل واقع الفلاحين وارتباطهم بالأرض التي شكلت فضاءاً للصراع بينهم وبين الإقطاع، ما جعل واقع الرواية واقعا متحركا يدفع به صراع المصالح وضرورات الثورة. وقد كان الشرقاوي ضمن هذا الصراع كاتباً وراويًا وشخصية من شخصيات الرواية، يعلن بذلك انتماءه الطبقي وانحيازه للفلاحين، ولقضايا الحرية والعدل والكرامة، ملتزماً بإعلاء شأن الإرادة الإنسانية ونضالها ضمن الإطار الجماعي الطبقي لصنع المصير وفق المادية التاريخية.

الكلمات المفتاحية: المنهج الواقعي، نظرية الالتزام، الأدب العربي، رواية الأرض، عبد الرحمن الشرقاوي.

مقدمة

بدأت بوادر المنهج الواقعي الاشتراكي ونظرية الالتزام تظهر في العالم العربي، وتحديدًا في لبنان ومصر، في بداية العقد الخامس من القرن العشرين في الصحف والمجلات والجرائد، وعن طريق ترجمة الكتب المؤلفة في هذا الاتجاه. وكان لجرائد "المصري" و"الجمهورية" و"أخبار اليوم" المصرية، وجرائد "الحياة" و"الثقافة الوطنية" و"الآداب" اللبنانية دور في هذا المجال، حيث استغل الشباب ذوو الاتجاه اليساري منابر الجرائد لكتابة الشعر والقصة والمقالة ذات التوجه الواقعي الاشتراكي المهتم بتصوير الصراع بين طبقات المجتمع، وبالالتزام الأدبي بمعاينة المهوم الجمعية والاهتمام بقضايا المجتمع وانشغالاته الكبرى. وصدرت الدواوين والروايات، وعرفت الساحة الأدبية أعمالًا واقعية ملتزمة.

ويتحدد تاريخ ظهور الواقعية الاشتراكية في العالم العربي، كما يجمع على ذلك النقاد والدارسون، سنة ١٩٥٥ بصدر كتاب "في الثقافة المصرية" بتأليف مشترك للنقاد المصريين محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس. وفي تاريخ قريب جدا لظهور هذا الاتجاه، ظهرت نظرية الالتزام السارترية بفلسفتها ومفاهيمها ودعوتها الأدباء من منطلق الحرية والمسؤولية لإنتاج أدب مواقف يكشف عن العالم بهدف تغييره. الفقرة الثانية. وفي هذا السياق، ظهرت مجلة "الآداب" لصاحبها الأديب والناقد اللبناني سهيل إدريس بخط تحرير واضح كشفت عنه افتتاحية العدد الأول من المجلة، حيث أعلن فيها عن ضرورة المشاركة في "الأدب القومي العظيم" عبر "أدب الالتزام" كما حدده جان بول سارتر انطلاقًا من فلسفته الوجودية القائمة على الحرية والاختيار والمسؤولية، وعلى الدعوة إلى التزام الكاتب وربطه بوظيفة اجتماعية ترمي إلى تغيير الواقع ومساندة قوى التحرر في العالم. وكانت المجلة منبرا قويا للعديد من الأدباء والمنتقنين الذين آمنوا بنظرية الالتزام من مختلف البلدان العربية، فساهمت بذلك في انتشار هذا الاتجاه في الأدب والنقد على صعيد عربي واسع خاصة في مرحلة تاريخية عاشها العالم العربي بعد نكبة فلسطين والعدوان الثلاثي على مصر.

إن المتتبع لمسيرة التيار الواقعي الاشتراكي ونظرية الالتزام في العالم العربي يقف بكثير من الوضوح على مدرستين اثنتين هما المدرسة المصرية بعلميها الكبيرين: محمود أمين العالم ومحمد مندور، والمدرسة اللبنانية باسميها اللامعين: حسين مروة وسهيل إدريس.

المبحث الأول: المنهج الواقعي ونظرية الالتزام في الأدب

المطلب الأول: المدرسة المصرية

١. محمود أمين العالم

يرى محمود أمين العالم، في تحديده لمعنى الواقعية، أن الأدب نتاج اجتماعي يرتبط بالمجتمع ارتباطًا حيا ويشكل صورة صادقة له، حيث يقدم الأديب نظرتَه إلى العالم والعصر الذي يعيش فيه بما فيه من قلق وآمال وتطلعات

وصراعات بين طبقاته، ويعكس في عمله الأدبي هذه الصورة بفهمه المترابط المتكامل لمجتمعه، وبمعرفة العميقة بالقوى المتصارعة داخله. ولا يكفي الأدب كي يكون واقعياً أن يقدم سخطه على الواقع في إطار من اليأس الذي يدفع نحو الانعزالية والهروب، بل عليه أن يكون متفائلاً يقدم الأمل في التغيير. ولذلك جعل العالم الأدب الواقعي قائماً على أساسين، "فلا يكفي أن يكون فهم الأديب متكاملًا وإنما ينبغي أن يكون فهما متطوراً كذلك. هذه هي النظرة الوحيدة التي تحترم حياة الإنسان وتؤمن بمستقبله، وهي نظرة تجعل من صناعة الأدب رسالة، ومن الأديب رسولا مسؤولاً" (العالم، ١٩٨٨).

ولا يعني ارتباط الأدب بالواقع، في النقد الواقعي عند العالم، الواقع الخاص للأديب وتجربته الشخصية، بل يعني الواقع الذي يمثله تطور المجتمع في السياسة والاقتصاد والثقافة والفن. وقد تحدث في هذا الإطار عن الوعي الزائف في الحياة العربية المعاصرة وانعكاساتها في النظرية الأدبية والإبداع العربي في محاولة لإجهاض مسار الثورة العربية وإفراغها من معناها، وحيث ظهر الأدب تنظيراً وإبداعاً "بمجرد مغامرة شكلية مسرفة في التجريد والتعقيد والاعتزاز والتعالي. وتكاد هذه الظاهرة أن تجرف عن مسارها بعض مفكرينا وأدبائنا ممن لا شك في سلامة وعيهم وجدية التزامهم بقيم التحرر والتقدم والاشتراكية بل ممن كانوا ذات يوم طلاباً التنوير الثوري الحقيقي في أدبنا العربي المعاصر" (العالم، ١٩٨٩).

إن الأدب، حسب المنظور النقدي للعالم، وانسجاماً مع النظرة الماركسية والمنهج الواقعي، هو انعكاس للحياة الاجتماعية وللصراع الطبقي وللعلاقات الاجتماعية والتاريخية في مجتمع معين وعصر محدد، غير أن ذلك لا يعني الانعكاس الآلي الميكانيكي والنقل الحرفي للواقع، بل إن الأدب في هذه العلاقة الجدلية بناء لا يحتفظ بعناصر الواقع كما هي، وإنما يشكلها تشكيلاً نوعياً يضيف عليها قيمة مضافة في إطار من التنوع داخل وحدة تحتفظ للعناصر بكليتها الخاصة. ولا تتحقق هذه القيمة المضافة من موضوع العمل الأدبي ولا من شكله فقط وإنما من المضمون، "إن القيمة المضافة في الأدب هي نفسها مضمون الأدب، إنها تنبع من التشكيل النوعي الخاص لعناصر الموضوع بما يعطيها مضموناً معيناً" (العالم، ١٩٨٩).

إن كل أدب، حسب العالم، هو أدب ملتزم، وفي ذلك يشير إلى تناقض قول سارتر بالحرية التلقائية المطلقة وقوله بالالتزام مستبعداً إمكانية أن يكون الأديب الوجودي ملتزماً بغير الدفاع عن الحرية وليس لأدبه مضمون محدد، إذ هو التزام بغير دلالة، ولذلك أخرج الشعر من دائرة الالتزام كما الرسم والنحت والموسيقى التي لا تحيل حسب سارتر على معنى خارجها. ويخضع معنى الالتزام لمضمون الأدب ودلالته المؤثرة، ولذلك تختلف معانيه، فقد يكون التزاماً برؤية جامدة للواقع، ويسمى العالم رؤية متخلفة، أو التزاماً برؤية تقدمية إصلاحية، أو برؤية ثورية، وتبرز الرؤية في المضمون، وتختلف باختلافها معاني الالتزام الذي يقدمه العالم بمعناه الشائع قائلًا: "هو التزام بقضايا التقدم البشري بالرؤية الصحيحة لحرية النضال البشري، وهو التزام ينبع في الأدب من الرؤية الاجتماعية والتاريخية للأديب، ويبرز في بنائه العام في مضمونه، في دلالته المؤثرة، في قيمته المضافة، بشكل تلقائي، غير مفروض لا على الأديب ولا من الأديب على الأدب نفسه" (العالم، ١٩٨٩).

٢. محمد مندور

طرح محمد مندور مفهومه للأدب ووظيفته الاجتماعية في كتابه "الأدب ومذاهبه"، حيث قدم فيه نظرتة للأدب وللنقد الواقعي الذي يبحث في العمل الأدبي عن التزام الأديب، وهو ذلك الذي يتطلب منه "أن يصدر أحكاما صريحة أو ضمنية في عناصر الحياة المختلفة، وألا يقف عند عملية التمييز والتحليل والكشف، بل يعدوها إلى مرحلة الغزلة والدفع، وذلك لكي يساهم في تطوير نفسه أو مجتمعه أو الإنسانية كلها، وهنا يتسع المجال لأدب الكفاح والتوجيه ونشر الوعي والتمهيد للحركات الإصلاحية الكبرى، بل للثورات العارمة، وعلى هذا النحو يفسر لنا هذا التعريف كيف أن الأدب يمهد للثورات من حيث إنه نقد للحياة" (مندور، د.ت)، وخاصة بعد أن أصبحت الجماهير "لا تقنع من الأدب بالمتعة الجمالية أو بعملية الترويح، أي التنفيس عن مكبوتات النفس، بل تطلب منه عملا إيجابيا" (مندور، د.ت).

إن وظيفة النقد الإيديولوجي عند مندور هي تغيير وتقييم وتوجيه العمل الأدبي نحو ما هو أفضل وأنفع في الحياة والمجتمع، وبغير ذلك يكون الأدب بعيدا عن مظاهر الحياة خاصة الحياة الجديدة التي نشأت في إطار حركات التحرر الوطني والقومي بفكرها وقيمها الجديدة، و البحث في مضامين هذه الحياة هو أنفع بكثير، حسب مندور، من البحث في أشكال الأدب والفن التي تراجعت وثبتت عدم فعاليتها حين فصلت الأدب عن وظيفته الاجتماعية والإنسانية، وذلك "خلق بأن يؤدي في النهاية إلى تمييع العقول والنفوس في نفس الوقت الذي نحس فيه بأن ما لا يزال ينقصنا حقا هو بناء عقلية ووجدان وسلم قيم المواطن الاشتراكي الصحيح" (مندور، د.ت).

إن التزام الأديب بهذا الطرح الذي قدمه مندور هو اتخاذ لموقف، وبلورة رأي حول ما يجري في حياة الجماهير التي "أصبحت لا تقنع من الأدب بالمتعة الجمالية أو بعملية الترويح، أو التنفيس عن مكبوتات النفس، بل تطلب منه عملا إيجابيا، وإيثارا وتضحية بالذات في سبيل الفن من ملايين الناس الغارقين في محن الحياة ومشتقاتها. وربما كان هذا هو السبب الأساسي في طغيان الدعوة إلى الأدب الملتزم في الوقت الحاضر، وهو الأدب الذي يحارب الذاتية والانعزالية والهرب، ويدعو الأديب إلى أن يواجه مشاكل عصره، ومحن الحياة حوله، لا ليسجلها أو يعرضها فحسب، بل ليلتزم إزاءها برأي، ويتحمل مسؤولية هذا الرأي أمام الجميع مهما عرضته تلك المسؤولية إلى الإخطار أو أنزلت به من مشقات" (مندور، د.ت).

المطلب الثاني: المدرسة اللبنانية

١. حسين مروة

كتب حسين مروة مجموعة من الدراسات النقدية التي أسهمت في التأسيس للمنهج الواقعي، ودعا إلى التزام الناقد بالإبداع والتقييم والتوجيه عبر الثقافة الواسعة والمعرفة الشاملة لقوانين تطور المجتمع بشروطه التاريخية، وبمجملة ظروفه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. كما مثل بكتاباتة النقدية تيار الواقعية الاشتراكية في العالم

العربي بفعل المثاقفة والتأثر بحركة النقد في الغرب وبالفلسفات والسياقات التاريخية التي ساهمت في إنتاجها، وأعلن في إطار توجهه ألا "حرية للأديب التقدمي في العالم الرأسمالي، مادامت الفئات التي تستثمر الكادحين مناصبة العداء حفاظا على نظامها الاستثماري وحفاظا على بقائها" (مروة، ١٩٥٦)، وأن على الأديب والناقد أن يكونا موجّهين بنظرة تشمل الحياة والكون والمجتمع، يقول: "وإننا في ضوء هذه النظرة التي نحاول بها فهم التطور التاريخي ننظر إلى مجتمعتنا وإلى خصائصنا القومية والتاريخية، وإلى واقع القوى النامية الصاعدة في شعبنا ثم نختار ونتقي مواضيع أدبنا الواقعي (مروة، ١٩٥٦).

وقد طرح حسين مروة مفهوم الواقعية الجديدة في مقابل الواقعية القديمة التي تعكس صراع القوى المتناقضة بصورة تلقائية ودون قصد واضح إلى تصوير الحياة تصويرا حقيقيا تبرز فيه ثورية الواقع، بينما الواقعية الجديدة أدب واقعي موجه بوعي وقصد صادرين عن معرفة الواقع الموضوعي وعن رؤية علمية جدلية للتاريخ توجه النقد لبحث الصيرورة التاريخية للشرط الإنساني في العمل الأدبي، ونحو رفض كل أدب مثالي مجرد ومطلق تغيب معه حقيقة الواقع المادي وكذا رفض الغموض واعتباره خطرا على الأدب وعلى علاقته بالجمهور خاصة إذا كان مقصودا وإيهاما بما ليس في الواقع.

وليس الأدب، بهذا المعنى، مجرد أداة لخدمة الحياة المادية، بل تحفيزا للطاقات المادية والروحية في الإنسان لإبداع الجميل والخير وخدمته من أجل أن يستمتع "بفرح العافية والحرية، بفرح الوجود الأنبيل والأكمل، أي من أجل أن يستمتع الإنسان بمتع الرخاء الروحي والمادي الحقيقيين الخالصين من شوائب القلق والخوف والضياع والعبودية، ذلك هو مفهوم الواقعية الحقيقية من حيث نظرتها للإنسان.. فهي لا ترى الإنسان كائنا ماديا ميكانيكيا بمعنى أنه ليس سوى جهاز آلي مفرغ من الإرادات والأشواق والطاقات الروحية" (مروة، ١٩٨٨). ولا يكون الأديب بهذا التصور ميكانيكيا في عملية الخلق، بل عقلا نيا ينطلق من الحقيقة الموضوعية التي تمثل الأساس الاجتماعي للأدب الواقعي، بحيث لا يصفها وصفا خارجيا بتفاصيلها وجزئياتها، وإنما يعمل بوعيه لها وإدراكه لحركتها ضمن حركة التاريخ إلى الكشف عن جوهر هذه الحركة وقوانين تطورها المتحكمة في الظواهر ويحدد موقفه منها. ولا يكفي أن يصور الأديب حياة مجتمعه بل عليه أن ينفذ إلى جوهر الظواهر الكامنة وراء الواقع الموضوعي فيعرض لما يغير هذه الحياة ويصلح عاهاتها ويدفعها نحو التطور.

٢. سهيل إدريس

يقول سهيل إدريس في افتتاحية العدد الأول من مجلة "الأداب" سنة ١٩٥٣ بعنوان "رسالة الآداب": "نحن نؤمن بأن الأدب نشاط فكري يستهدف غاية عظيمة: هي غاية الأدب الفعال الذي يتصادى ويتعاطى مع المجتمع، إذ يؤثر فيه بقدر ما يتأثر به. والوضع الحالي للبلاد العربية يفرض على كل وطني أن يجند جهوده للعمل في ميدانه الخاص من أجل تحرير البلاد ورفع مستواها السياسي والاجتماعي والفكري، ولكي يكون الأدب صادقا، ينبغي له ألا يكون بمعزل عن المجتمع الذي يعيش فيه... وعلى هذا فإن الأدب الذي تدعو

إليه المجلة وتشجعه، هو أدب الالتزام الذي ينبع من المجتمع العربي ويصب فيه" (إدريس، ١٩٧٧). ويضيف: "والمجلة إذ تدعو إلى هذا الأدب الفعال، تحمل رسالة قومية مثلى. فتلك الفئة الواعية من الأدباء، الذين يستوحون أدهم من مجتمعهم يستطيعون على الأيام أن يخلقوا جيلا واعيا من القراء يتحسسون بدورهم واقع مجتمعهم، ويكونون نواة الوطنيين الصالحين. وهكذا تشارك المجلة بواسطة كتابها وقرائها في العمل القومي العظيم، الذي هو الواجب الأكبر على كل وطني" (إدريس، ١٩٧٧).

لقد كان مشروع مجلة "الأداب"، استنادا إلى فلسفة سارتر الوجودية ومفهوم الالتزام والحرية، يسعى إلى "تعميق الوعي بقضية فلسطين، وفسح المجال للأقلام التي تعيها في حفز الأمة العربية لاستكمال القضاء على أسباب الهزيمة" (الأمير، ٢٠٠٠)، وكذا تعزيز الفكر القومي الذي يجتمع حسب سهيل إدريس مع الوجودية "في زاوية معينة هي الإيمان بحرية الفرد ومسؤوليته، ومن هنا كان إقبال المثقفين العرب على الفكر الوجودي وتأثر الكثيرين منهم به" (الأمير، ٢٠٠٠).

ويركز سهيل إدريس، بتأثير من سارتر دائما، على حرية الأديب ومسؤوليته، هذه الحرية التي يلتزم فيها بمواقف قومية ترفع درجة إحساسه وإسهامه في تعميق الوعي بالوحدة العربية والانتماء إلى أمة واحدة، والعمل لأجل خدمة القضايا القومية الكبرى. لذلك جعل من الحرية المطلب الأول للمثقف، ورأى في انتساب الأديب إلى حزب سياسي ما تقييدا لحرية في الاختيار، يقول: "لم أقتنع بضرورة أو مجدى الانتساب إلى حزب سياسي معين. على الرغم من إيماني بمبادئ بعض الأحزاب، ولا سيما الوحدة والحرية والاشتراكية. كنت، وما أزال، أعتقد أن انتساب المثقف الحر إلى حزب ما يقيد حرته في الاختيار، ويلزمه بسلوك لا يتمتع دائما بالحرية التي هي المطلب الأول للمثقف" (الأمير، ٢٠٠٠).

المبحث الثاني: دراسة تطبيقية للواقعية الاشتراكية وقضية الالتزام في رواية "الأرض" لعبد الرحمن الشرقاوي

تمهيد

كتب عبد الرحمن الشرقاوي رواية "الأرض" في بداية خمسينيات القرن الماضي ونشرها على حلقات أسبوعية في صحيفة "المصري" قبل أن تنشر في كتاب سنة ١٩٥٤. ويعتبرها معظم النقاد وثبة في عالم الرواية المصرية الحديثة، وأهم إنتاج روائي صدر في ظروف سياسية واجتماعية عصيبة عرفها الشعب المصري في حقبة من حقب تاريخه. وتحكي الرواية أحداث مصر في أوائل ثلاثينيات القرن العشرين انطلاقا من واقع قرية الكاتب التي يتجسد فيها الصراع بين الفلاحين والإقطاع، وخاصة في مسألة الري التي تشكل عصب الحياة في كل قرية زراعية يدخل فيها الفلاح مع أرضه في علاقة تتجاوز أسباب الحياة، لتتفتح على ما هو أعمق، وما هو أكثر تجذرا مما لا يستشعره إلا فلاح في تصوره للانتماء والهوية.

وتطرح الرواية مضمونا قويا يحمل رؤية تقدمية عن الصراع الطبقي بين الفلاحين والإقطاعيين المسنودة ظهورهم بالمستعمر وبالسلطة وأجهزة الدولة، وتتناول أحداثا يواجه فيها الأبطال الثوريون صراهم من أجل الماء، ويناضلون ضد الدستور وتزوير الانتخابات، وضد الطريق الزراعي الذي يصادر أرضهم ليصل أرض الباشا بطريق القاهرة.

وقد اعتبرت رواية "الأرض" قفزة في الفن الروائي العربي الحديث، عبرت عن إنتاج الكتاب الأحرار في مصر الذين شكلت جماهير الشعب المصري مصدر إلهامهم، وجعلوا من واقعهم ومن واقع الطبقات الكادحة مبدأ التزامهم ومبتدأ فهمهم للفن والكتابة ولدلالاتهما الاجتماعية، وجسدت مذهب الواقعية الاشتراكية في الأدب، والتزام الكاتب بقضايا مجتمعه انطلاقا من منظور تفاعلي يجعل من انتصار الطبقة العاملة والفئات المقهورة عامة، وعزمها الدائم على التحدي يقينا راسخا ينطلق منه الكاتب في تقديم محكيه بآليات ووسائل تخضع لأسس ومبادئ الواقعية الاشتراكية كما ظهرت في منبتها الأول، روسيا، وكما سادت في الأدب والفن، غربيا وعربيا، ردحا من الزمن تجاوز أزمنة الازدهار الكبرى لباقي المدارس الأدبية والنقدية الأخرى.

المطلب الأول: ملامح الواقعية الاشتراكية في رواية "الأرض"

تندرج رواية "الأرض" لعبد الرحمن الشوقاوي في إطار مذهب الواقعية الاشتراكية، بما تعرضه من قضايا تتصل بالشقاء الإنساني المرتبط بعلاقات التركيب الاجتماعي، الذي تدخل فيه الطبقة المسحوقة في صراع مع طبقة الرأسمالية وأرباب العمل ورؤوس الأموال. هذا الصراع الذي تثور فيه طبقة الفلاحين والعمال بوعيها الثوري على مستغليها من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية، والقضاء على التفاوت الطبقي محرك الصراع الاجتماعي، والمؤدي، وعبر البطل الثوري الإيجابي، إلى تحقيق أهداف الثورة والتأثير في المجتمع وفي العلاقات الاجتماعية عبر علاقة جدلية تدخل فيها علاقات الإنتاج والبناء الفكري الثقافي في علاقة تأثير وتأثر متبادلة.

وبالتزام عبد الرحمن الشوقاوي كاتب الرواية بقضايا وهموم طبقة الفلاحين انطلاقا من معالجة صراعها في قريته مع الإقطاع وقوى الاستغلال، وبوعي ثوري ييث المعرفة والوعي في صفوف الجماهير ويظهر كفاح الفلاح ضد الرأسمالية، في إيمان عميق بقوة تأثير الفرد في المجتمع بعيدا عن الاستسلام وضدا على الاستلاب وأدوات القمع، وبحضور البطل الثوري، البطل الإيجابي الذي تمثل في الرواية على مستوى جمعي، كانت البطولة بطولية جماعية، وكان البطل الجمعي ممثلا في عدد من الشخصيات التي كانت صوت عبد الرحمن الشوقاوي في رفض آلة الاستغلال والقمع والتبشير عبر التمرد والثورة بانتصار طبقة الفلاحين، واندحار القمع البرجوازي الإقطاعي، وتحقيق العدالة الاجتماعية.

١. الاستغلال الطبقي

يبدأ عبد الرحمن الشرقاوي روايته بالحديث عن صراع أهل القرية من أجل القوت، وعن معاناتهم مع قوى الإقطاع وأجهزة الدولة والحكومة التي تلزم الفلاحين بضرائب مرتفعة على الأرض وتصادرها إن لم يؤدوها، فتذهب ملكيتها إلى كبار ملاك الأراضي، وموظفي الدولة الكبار لتستمر معاناة الفلاحين مع الجوع والفقر والقهر والاستغلال وكل أشكال الظلم و التهميش، يقول الراوي:

"وأنا أعرف أن القلائل الذين يملكون أرضا في القرية كانوا وحدهم يشغلون بالضرائب المتجمدة على الأرض، وبالصرف الذي يطالبهم بمال الحكومة، ويهددهم دائما بالحجز على الأطنان" (الشرقاوي، د.ت: ٤)

ولا يملك الفلاحون في بداية الرواية إلا الإذعان للممارسات البرجوازية الإقطاعية التي توسع ممتلكاتها على حسابهم، مما عمق بؤسهم على جميع المستويات، الاقتصادية منها والاجتماعية والثقافية، لكن الوعي السياسي لهذه الطبقة ما يفتأ يظهر في بداية الحكيم، حيث قاطع الفلاحون الانتخابات التي تجريها حكومة صدقي باشا ويشارك فيها حزب الشعب، فكانت قوى القمع والاستغلال لهم بالمرصاد، رمت ببعضهم في السجون، وضربوا بالسياط، وعذبوا بأشكال تتنافى والكرامة الإنسانية بسبب رفضهم للدستور الجديد، يقول الراوي:

"...فحدثني هو عن فلاحين سجنوا وضربوا في المركز من أجل الدستور وعن الشيخ حسونة ناظر المدرسة في القرية المجاورة وقال لي إنه نقل إلى بلد في آخر الدنيا من أجل الدستور. واقترب من أذني ولد آخر وهمس أن شيخ الخفراء عم محمد أبو سويلم والد وصيفة قد فصل من وظيفته في جرائر الدستور. فالقرية قاطعت الانتخابات التي يجريها صدقي ويدخل فيها حزب الشعب، ولم يذهب رجل إلى الصناديق ليعطي صوته". (الشرقاوي، د.ت: ١٦)

وكان من نتائج الاستغلال الممارس على الفلاحين من قبل همجية الإقطاع والبرجوازية كما يصورها الشرقاوي أن تفاقمت أزمة أهل القرية، خاصة مع الأزمة الاقتصادية العالمية التي اضطرت فيها أمريكا إلى رمي الذرة والبن في البحر، ويحرق "القمح والقطن في الدنيا الجديدة، بينما لا يجد الناس في مصر قروشا يشترون بها الملابس، والفلاحون تتمزق أمعاؤهم من خبر الذرة الجاف" (الشرقاوي، د.ت: ٢٧٨)، ويتساءل محمد أبو سويلم شيخ الخفراء الذي فصل من وظيفته لمقاطعته الانتخابات، ورفضه تزويرها بتسجيل أسماء الموتى في اللوائح:

"لماذا لا ينسجون، ويبيعونه قماشاً بقروش قليلة.. ولماذا لا يبيعون القمح للبلاد التي تأكل الذرة.. أو التي لا تجد ما تأكله؟! " (الشرقاوي، د.ت: ٢٧٨)

٢. الكفاح الثوري للفلاحين والعمال

تصور رواية "الأرض" على طول خطها الدرامي صراع الفلاحين المرير مع سيطرة الإقطاع، وذلك من خلال أشكال مختلفة من النضال والكفاح الثوري التي خاضوها في مواجهة خطة انتزاع الأراضي ومصادرتها وتكريس السيطرة الاقتصادية والاجتماعية، ومراكمة الثروات، عن طريق المشاريع الكبرى في المجال الفلاحي والصناعي بأقل تكلفة في الإنتاج، وباسترقاق العمال في الأراضي الزراعية وفي المصانع. كل ذلك بفضل تنامي الوعي لدى طبقة الفلاحين وامتلاكها للحس الثوري ولأدواتها الخاصة في صراعها ضد أشكال الهيمنة السائدة اقتصادياً وسياسياً وإيديولوجياً.

وتشكل المواجهات التي صورتها الرواية، من خلال المحكي والفضاءات والشخوص والحوار والوصف، تفجراً للصراع الطبقي بين الفلاحين الثوريين وبين الإقطاع المستبد المدعوم بسلطة الدولة وعملائها، وجيش الاحتلال والبرجوازية والمؤسسة الدينية التي حاولت جميعها مواجهة كفاح الفلاحين و نضال العمال والطلبة في المدن. ويدرك عبد الهادي، الفلاح الذي يملك فدانا يجعل له مكاناً خاصاً في القرية أن أسلوب المقاومة والصراع مع السلطة والإقطاع هو مخرج أهل القرية وفلاحيتها من مشاكلهم، وأن تقديم العرائض والملمات والشكاوى للحكومة لا يجدي شيئاً في كفاحهم ضد الاستبداد، وصاح بأعلى صوته وهو يضرب الأرض بعصاه:

"حكومة إيه يا وله؟ حكومة إيه دي بس ما تفلقونيش يا خي؟ تاخذ منا نص المية ازاي؟ مين دا اللي ياخذ منا خمسة أيام من العشرة بتوعنه.. ليه.. يا سلام كده على الحكومة.. وحياتة النبي الميه ما هي منحاشة منا أبدا.. تقفلوا التربة وتبطلوا السواقي والنبي لتجري دمانا قبل مياها" (الشرقاوي، د.ت: ٦٠)

كما تصور الرواية ثورة النساء، وفيهم وصيفة ابنة أبي سويلم، على عمدة القرية بشتمه ورميه بالروث والطوب، وتناقل الخفراء في دفع ذلك عنه، فهم أيضاً يملكون أرضاً في حوض التربة ستلتهمها الطريق. "وصرخت النساء واضطربن، وأمسكت وصيفة رقبة العمدة بيدها... وبدأت الفتيات يلقين بما في أيديهن في وجوه الخفراء.. والتقطت وصيفة مقطفاً مفعماً بالروث، وألقته بكل حنقها على رأس العمدة" (الشرقاوي، د.ت: ٢٤٩).

وتختلف أساليب مواجهة الفلاحين للحكومة والإقطاع بين المواجهة العنيفة على الأرض وبين كتابة الشكاوى والعرائض إلى الجهات المسؤولة، وكذا إرسال البرقيات إلى الجرائد والصحف المعارضة. وقرر محمد

أفندي كتابة تلغراف إلى النائب العام يشكو فيه القبض على رجال القرية و "أن يرسل صورة من التلغراف إلى الصحف التي تهاجم الحكومة.. وإلى كل الكتاب الذين تطاردتهم الحكومة... وفكر في أن يرسل صورة أخرى لوزير الحقانية، وصورة رابعة لرئيس محكمة الاستئناف.. ولنقيب المحامين" (الشرقاوي، د.ت: ٣٠١).

٣. تمثلات البطل والوعي الثوري

ليس عبد الهادي في رواية "الأرض" بطلها ولا أبو سويلم ولا دياب ولا علواني، بل رجال القرية الذين يمثلون البطل الجمعي في الرواية، ويقدمه عبد الرحمن الشرقاوي ممثلاً أيضاً في اتحاد الفلاحين الثوري، وفي تضافر جهودهم دفاعاً عن الأرض، محور الصراع الطبقي في القرية، حيث تحضر الشخصيات في البناء الروائي في مستويات متقاربة من القوة والأهمية، وهو الشيء الذي اعتبره محمود أمين العالم اتجاهاً غير سليم من كاتب حر ملتزم قدم رواية تقدمية هي "أهم إنتاج روائي باسم هؤلاء الكتاب الأحرار حتى اليوم، بل ما من شك أنها وثبة في عالم الرواية المصرية الحديثة" (العالم وأونيس، ١٩٨٨ : ١١٨)، إذ "أن الاعتبارات السياسية والاجتماعية أمام الكتاب الأحرار تفرض عليهم أن يقدموا البطل الثوري لكل مرحلة من تاريخنا على حقيقته وفي حدوده الواقعية دون مبالغة أو تزييف. وهو موجود دائماً في كل مراحل حياتنا، في طليعة قوات الشعب، ومع ذلك، فكتابتنا لا يقدموه لنا كاملاً. فإذا قيل إن الشعب هو البطل، كان ردنا على ذلك، أن هذا تزييف للواقع... وحتى في داخل الطبقة الواحدة لا يستطيع أي كاتب جاد أن ينكر أن هناك طليعة وجماهير. ولذلك، فمن الناحية المادية لا يمكن أن ننكر وجود البطل... ومسألة تقديمه أمام الجماهير القارئة مسؤولية اجتماعية و سياسية بالنسبة للكتاب الأحرار إذا أرادوا أن يباهوا جداً باقلامهم في معركة التحرير والديموقراطية". (العالم وأونيس، ١٩٨٨ : ١٢٩)

تعددت إذن تمثلات البطل في رواية "الأرض"، حيث ظهرت في سياق اجتماعي قدم أبطالاً إيجابيين يحركهم الوعي الثوري نحو رفض سياسة الاستغلال الإقطاعية وكل أشكال الاستبداد التي تمارسها على طبقة الفلاحين. وهكذا برزت شخصيات عديدة يتمثل فيها البطل الثوري، أهمها عبد الهادي وأبو سويلم والشيخ حسونة ودياب وشخصيات أخرى تشكل في مجموعها وباختلاف بنائها الفكري بطلاً جماعياً، وتربطها بحركة مجتمعها روابط فهم وإدراك ووعي وشعور بالمسؤولية في صراعها الحتمي ضد مستغليها من البرجوازية والإقطاع. ولحرص الشرقاوي على تقديم أبطاله الثوريين الواعين بطبيعة الصراع وبضرورة النضال على الأرض، يقدم مجموعة من الفتيان الذين يعملون في الحقول بأجر. والعمل المأجور في ميدان الزراعة إشارة إلى أن من أهل القرية من لا يملكون أرضاً يزرعونها بأنفسهم، فهو يقدمهم في صورة اليائس من انتظار الحلول والمدرك لقيمة العمل حيث همس أحدهم لزميله ساخراً، وكانوا في اجتماع أهل القرية في بيت أبي سويلم حين دعاهم الشيخ الشناوي للصلاة ليبارك الله رزقهم:

"قوم يا خوية قوم.. اخبط لك ركعتين.. يمكن نلاقي شغلة.. يمكن ربنا يطلع القطن ويجري فيه الدودة..
 خلبنا نخبص" (الشرقاوي، د.ت: ٦٨)

ومن موقع المثقف، يعتبر الشيخ حسونة نشر الوعي في طبقة الفلاحين مهمته الأساسية، ما يجد مرجعيته في الفكر الماركسي، وفي اعتبار لينين أن نشر الوعي من وظائف بروليتاريا المدن لمساندة نضال الفلاحين ضد الاستبداد المرتكز على الملكية الكبيرة للأرض، والتي يعيها الشيخ حسونة إذ "ظل على طول طريق الجسر، ينظر إلى النهر وإلى الحقول ويعجب لهؤلاء الذين يتركون الجسر الجميل المستقيم، ويقومون بدلا منه سكة زراعية جديدة ملتوية لتمر أمام قصر الباشا، وتضحى الدولة في هذا السبيل بكثير من المال، وبكثير جدا من الرزق، وكأن المقصود هو خراب الفلاحين؟! " (الشرقاوي، د.ت: ٢٧٧).

المطلب الثاني: الالتزام في رواية "الأرض"

تمهيد

بانضواء رواية "الأرض" إلى مذهب الواقعية الاشتراكية في الأدب، وتصويرها واقع الفلاحين في القرية المصرية ونضالهم ضد كبار الملاك وأصحاب رؤوس الاموال في بداية سنوات العقد الثالث من القرن العشرين، فإن الخطاب الروائي فيها قد التزم بنقل واقع الطبقة المسحوقة، والكشف عن طبيعة صراعها المستमित مع الطبقة المستغلة، هذا الصراع الذي يجعل واقع الرواية واقعا متحركا يدفع به صراع المصالح وضرورات الثورة. وكان اختيار الموضوع والقيمات والشخصيات والفضاءات والحوار تقنيات روائية تجلو التزام الكاتب، من خلال المضمون الإيديولوجي للرواية، ومعانقته قضايا الشعب وطبقة الفلاحين، بهدف خدمتها وتوجيهها، مشاركا بذلك في الحياة الاجتماعية والسياسية لعصره ولجتمعه وطبقته التي ينتمي إليها، كاشفا عن مواقفه في البناء والخطاب الروائيين، وعن اندراجه في العالم بوعي وحرية ومسؤولية.

١. اختيار الموضوع

اختار عبد الرحمن الشرقاوي في رواية "الأرض" قريته وفلاحيها، ومواجهتهم قرارات حكومة إسماعيل صدقي وإقطاعيي القرية موضوعا لتصوير الواقع، والكشف عن مواقف يتموقع فيها انطلاقا من كونه كاتب ملتزما ذا رسالة وهدف ورؤية إيديولوجية. وقد شكل واقع قريته مصدر إلهامه في كتابة "الأرض"، وفي تقديم شخصيات واقعية إيجابية لا مجال فيها للخيال، حيث يؤكد مرجعية محكيه الواقعية قائلا:

"ولست أحتال على القارئ لأسرق اهتمامه ويقظته، فأؤكد له أن الأبطال الذين يضطربون عبر هذه الفصول، لم يعيشوا أبداً إلا في الخيال. لن أخدع القارئ إلى هذا الحد.. فخيالاتنا في النهاية لا تستطيع أن تخلق الكائنات التي تمضي مع الحياة مثقلة بالحياة: تحاكم وتتعبذ وتعرف المتاع واليأس والهوى والدموع والضحكات والأمل الغامض وتضع المستقبل في إصرار حزين" (الشرقاوي، د.ت: ٣)

ويشكل التفاوت الطبقي تيمة أساسية في الرواية، في إطار ما التزم به الكاتب لمحاربة الفقر والفاقة والجوع والسنوات الطاحنة التي مارس فيها الإقطاع في القرى المصرية كل أشكال الاستبداد، فأصبح صاحب الملكية الأكبر مستعبداً من صادر أراضيهم ومذلاً إياهم بسياسة العمل المأجور في الأراضي الزراعية، ونقص عدد الفلاحين المالكين للأرض في القرية، وهزمت الأزمة الاقتصادية وظروف الاحتلال الناس في المدينة، إذ يصور الشرقاوي حال أهلها قائلاً:

"وكنت أعرف من المدرسة أن كثيراً من التلاميذ يقبلون بأحذية ممزقة وكنت أرى زملائي في المدرسة المحمدية يدارون جوارهم المثقوبة في أحذيتهم.. وكان بعضهم يسير بحذر حتى لا تبدو آثار الثقوب في البنطلونات، وكان أبي في أول كل عام يصلح لي بدلة أحد إخوتي الكبار. ولم يعد أحد من التلاميذ يعرف البدل الجديدة في أوائل الدراسة أو في الأعياد.. إلا القليل" (الشرقاوي، د.ت: ٣٤)

إن اختيار عبد الرحمن الشرقاوي لموضوع الأرض والفلاح مسؤولية وموقف والتزام، التزام بالمشاركة في مسيرة تشكيل الوعي والتحرير ومناهضة الظلم والاستبداد، ودعوة للانخراط في قضايا العصر وهوم الفلاحين وكل المقهورين في الأرض من أجل الحق والحرية والعدالة، "ولقد تفلح القوة الغاشمة في أن تنتزع الأرض من الفلاحين وفي أن تزحم السجون بالأحرار، وفي أن تصنع الأزمة فلا يفكر أحد إلا في اللقمة.. ولكن الناس يدركون أن الحرية هي التي توفر الطعام، وأن الدستور هو الذي يضمن الحقوق، وأن اختيارهم الراهن الحر لمن يحكمون هو الذي يضمن شروطاً إنسانية للحياة!" (الشرقاوي، د.ت: ٣٧٣).

٢. اختيار الشخصيات

تشكل بنية الشخصيات في رواية "الأرض"، كما في الخطاب الواقعي الاشتراكي، بنية نمطية، إذ يركز السارد على التاريخ الاجتماعي الذي يتحكم في بناء الشخصية وعلى مدى علاقتها بوسيلة الإنتاج داخل المجتمع في القرية والمدينة. ويقدم علاقة الشخصية بالأرض التي هي وسيلة إنتاج للفلاح كعلاقة تاريخية طويلة تنتسج من فعل الوراثة عن الآباء والأجداد، ومن ثمة يكون فعل الشخصيات مرتبطاً بموقعها من الأرض، كما يتم تصنيفها في علاقتها ببعضها تصنيفاً نمطياً قوامه الصراع الطبقي الذي يقسمها إلى كتلتين اجتماعيتين متصارعتين هما الفلاحون والإقطاعيون. وفي هذا الإطار، تحضر شخصية أبي سويلم، وشخصية عبد الهادي،

وشخصية محمد أفندي، والشيخ الشناوي، والشيخ حسونة، وشخصية وصيفة، وشخصية خضرة، وشخصية الباشا، وشخصية محمود بك، وشخصية عم كساب، وشخصيات أخرى ثانوية، لكن لها دورا في تطور الصراع، يتموقف منها الكاتب ويقدمها طيلة الخط الروائي بما يخدم المحكي والخطاب الذي يحمله. أولى الشرقاوي اهتماما كبيرا لشخصية الفلاحين، فقدم عبد الهادي، الفلاح الثائر الشجاع، الذي تعترف له القرية بشهامته وبجبه لأرضه، ويصوره في إعجاب خلال فرح في القرية قائلا:

"وبعد العصر تقدم الطبل البلدي زفة الفرحة، وسرت مع عبد الهادي مزهوا به ومن ورائنا زغاريد النساء، وغناء مختلط، ووقف الطبل فجأة في فضاء واسع، واتخذ الناس شكل حلقة، وبدأ عبد الهادي يلعب العصا مع رجل مشهور ماهر من قرية مجاورة.. وضرب عبد الهادي الأرض بعصاه ووثب.. وفعل الرجل الذي كان يقف بعيدا نفس الشيء، وأخذ عبد الهادي يدور حول نفسه ويقرع عصا زميله ثم يرقد ويقوم ويلف ويتولى وزميله يصنع نفس الاشياء، وأخيرا انقض عبد الهادي في ضربة مفاجئة على عصا زميله اللاعب الماهر.. وضح الناس فرحين: "يدوم الحماس يا عبد الهادي.. براوة يا جدع.. تسلم إيدك" (الشرقاوي، د.ت: ٢٤).

وفي المقابل، اختار الشرقاوي شخصية الباشا وشخصية محمود بك، إقطاعي القرية وراعي مصالح طبقة البرجوازية، وهما شخصيتان حاضرتان في الصراع غائبتان في الرواية، لا تحضران إلا بالقدر الذي يخدم المحكي، ذلك أن التزام الكاتب بقضية الفلاحين استوجب تبئرا قويا لهذه الطبقة، رافضا حضور شخصيات تمثل مستغليهم إلا بالقدر الذي يفضح ويكشف أساليبهم الجشعة. على أن رجالهم حاضرون في الرواية كشخصية العمدة و رجال الحكومة، كشخصية الصول وعبد الله الشاويش والمأمور والحكمدار ليقدم الشرقاوي من خلالهم موقفا منددا رافضا داعيا إلى التمرد عليهم ورفض استقلالهم. لقد كان التزام الشرقاوي، من خلال موقعه كروائي ومن خلال "الأرض" تحديدا، التزاما مرفقا بوحي نضالي يكشف زيف المؤسسة الدينية في مصر خلال فترة حكم صدقي باشا، وحتى قبله ما دام يقدم الشخصيات المتعلمة في الأزهر في انتماء مهزوز إلى الطبقة التي تخدم مصالحها وتناهى بها عن مشاكل الكفاح والثورة، يقول على لسان عبد الهادي وهو يحدث الشيخ يوسف:

"كده على طول بين يوم وليلة غيرت رأيك؟! كده القرش قلب مخك.. أمال قرية في الأزهر إيه ونيلت إيه؟! (الشرقاوي، د.ت: ٣٨١)

قدم الشرقاوي شخصية الشيخ حسونة باعتبار بطولته وثقافته وثورته ووعيه، وباعتبار دوره في تثوير الفلاحين، وتشكيل وعيهم بعدالة قضيتهم، وضرورة النضال ضد مستغليهم. يقول ملخصا سبب مشاكل الفلاحين في كلامه مع محمد أفندي:

"شوف.. أطرّد الإنجليز واطرد حزب الشعب كمان و رجع الدستور... ما فيش فائدة طول ما الإنجليز هنا" (الشرقاوي، د.ت: ٢٧٣)

٣. اختيار الفضاء

تمثل التزام الشرقاوي في رواية "الأرض" في انحيازه إلى اختيار فضاءات معينة مشحونة بدلالات عميقة تخدم رسالته التي من أجلها كتب الرواية، وفي سبيلها تمثل مفهوم الالتزام بما يعنيه من اتخاذ مواقف تجاه قضية ما، وتسجيلها في أدب هادف ذي مضمون إيديولوجي يرتبط به الكاتب ارتباطا في بناء عالمه السردي بمختلف مكوناته.

ويبدو من خلال العنوان، "الأرض" أن عنصر المكان هو أهم مكون تثبته الرواية، حيث يشير إلى النص من عتبه، ويؤمن بأهمية فضاء الأرض بجميع مكوناته المكانية الأخرى. ولأن المكان هو الذي يؤسس الحكيم كما يذهب إلى ذلك هنري ميتيران، لأنه يجعل القصة المتخيلة ذات مظهر مماثل لمظهر الحقيقة، فإن الشرقاوي، ومن منطلق التزامه بموم طبقة الفلاحين وبقضايا الكرامة والحق والعدالة الاجتماعية، اختار فضاءاته من واقع قريته الذي يعيد كتابته بمسؤولية في إطار العلاقات الاجتماعية داخلها، والتي تدخل فيها الشخصيات والزمن وكل المكونات الحكائية الأخرى في روابط تخدم هدف الكاتب لإظهار حقيقة الصراع الطبقي، وكشف جشع وظلم البرجوازية والإقطاع، منحازا في ذلك إلى فلاحي قريته، وإلى عمال المدن، وطلبة المدارس والجامعات، وكل المقيمين والمستضعفين.

وتعددت فضاءات "الأرض" باعتبارها أهم مكونات البنية الحكائية للرواية، وعنصرا أساسيا لفهم الإطار العام للأحداث، إذ فيها تتم أغلب مشاهد وفقرات وحوارات الرواية، فتحضر الأرض، والقرية، والشارع، والصيدلية، ودكان الشيخ يوسف، والقطار، والمصطبة، والمركز، ودوارة العمدة، والسجن، والحقول، والمسجد، وبئر الساقية، ودار أبي سويلم، والمدرسة وغيرها كفضاءات في الرواية تتفاعل فيها العوالم وتختلف بين كونها فضاءات مغلقة وفضاءات مفتوحة، وبين فضاءات أليفة وأخرى عدائية، وتتفاوت طبقاتها في الرواية كما في الواقع الذي يفرض حضور أمكنة مرجعية. على أن المكان في الرواية ليس مقصودا في ذاته، وإنما في علاقته بالشخصية الروائية، ولذلك لا يحتفي الشرقاوي بوصفه وأبعاده و مؤثثاته و لا بمعالمه الجغرافية والعمرانية، بل المهم هو كونه مجالا للصراع الاجتماعي، تحقق الشخصية وجودها بامتلاكه والهيمنة عليه، فهو عندها قيمة لا تتحقق إلا بواسطة الصراع وهو عند السارد قيمة تاريخية إنسانية لا تتغير مع تغير الزمن. وقد جعل الشرقاوي من دار أبي سويلم والمصطبة خارجها فضاء لمجموعة من الأحداث الهامة واعتراها بمكانة الشخصية وموقعها الاجتماعي داخل القرية، فهو الفلاح الذي يعي وعيا ثوريا لأعياب الحكومة وسياساتها في انتزاع الأراضي وزرع الخلاف بين الفلاحين، وعلى ذلك يدل الشرقاوي في الحادث الذي وقع بين أبي سويلم والشيخ حسونة في مندرة الشيخ يوسف، حيث أشيع أن أبا سويلم زعم أن الشيخ حسونة

ذهب إلى المركز، لا لأجل القرية، ولكن ليقنع أصدقاءه هناك بتغيير خط الطريق الزراعية حتى لا يمر في حقله. يقول أبو سويلم مخاطبا حسونة:

"بقى أنا يا فلاح أفهم الدور وانت اللي اسمك متعلم متنور لسه ما عرفتش؟" (الشرقاوي، د.ت: ٣١٠)

كما وظف الشرقاوي السجن مكانا عدائيا منغلقا لفضح قمع الحكومة في تحالفها مع الإقطاع بتطور الوعي الثوري عند عبد الهادي وأبي سويلم ودياب، فمن خلال أحاديث الطلبة والموظفين والتجار الذي جمع فضاء السجن بينهم وبين بعض رجال أهل القرية، "فهم عبد الهادي كثيرا من الأسرار، فهم أن الإنجليز الذين يحكمون في مصر الآن، وأن هؤلاء الإنجليز والذين يستخدمونهم سيزولون تحت الضربات؟... وذهل عبد الهادي مما سمع.. وأحس بدفء خالص جديد يدب في أطرافه ويمنحه العنفوان... وعجب أكثر من أي شيء لإيمانهم الخارق بأنهم سيتردون حزب الشعب، والذين وراء حزب الشعب" (الشرقاوي، د.ت: ٢٦٢). وكما كان موقف الشرقاوي من تسخير الدين لخدمة مصالح الإقطاع وتكريس الواقع الذي يضمن لهم استمرار الهيمنة، فقد اختار المسجد فضاء لإبراز موقفه من التحرر من عبودية الفهم الخاطيء المهزوز للدين، البعيد عن واقع المجتمع وتغييراته، وتأكيدا على دوره في الصراع القائم بين طبقتي الفلاحين والإقطاعيين، وعلى أن التحرر من الخرافة والأوهام التي تختلط بالفهم الضيق للدين وبتفسير الظواهر غيبيا هو أساس وضرة للتحرر من الظلم والاستغلال الطبقي.

٤. اختيار الزمن

يكتب الشرقاوي عن قريته وعن مصر خلال سنوات حكم صدقي باشا في فترة كان فيها فتى صغيرا لا يتجاوز عمره الثانية عشر سنة. لم يكن يستطيع رغم مشاركته في المظاهرات يوم اقتحم طلبة المدرسة الخديوية الثانوية عليهم باب المدرسة المحمدية الابتدائية ليخرجوا جميعا متظاهرين مطالبين بالاستقلال ومنددين بحكومة حزب الشعب. وحين كبر الشرقاوي الفتى واكمل وعيه بضرورة النضال والكفاح الثوريين، وآمن، من منطلق حريته و مسؤوليته، بضرورة كتابة أدب ملتزم فعال، أدب مواقف يكشف عنها قاصدا إلى تغييرها، حينها شارك في ملحمة قريته كتابة لتلك الفترة، وانطلاقا من رؤية إيديولوجية اشتراكية، وندد بحكومة صدقي وبالمرحلة التاريخية التي كان فيها وزيرا أول، ومجدد، بالمقابل، أمجاد الثورة العربية وثورة ١٩١٩ وحزب الوفد وسعد زغلول وسينوت حنا وويصا واصف. يقول بلسان أبي سويلم مستلهما أيام أحمد عرابي وزمن الثورة العربية كزمن تاريخي مرجعي:

"طب لما أقول لك.. اركب من الفجر وروح عالمركز فهمهم انهم مش أشطر من الإنجليز.. مش أقوى من الإنجليز.. قول لهم كده.. لا هم أكثر من الإنجليز اللي احنا بهدلناهم، ولا احنا أقل من أمهاتنا اللي بهدلوهم أيام عربي، واحنا يتوح سنة ١٩!" (الشرقاوي، د.ت: ٢٨٢)

شكل إذن زمن حكومة صدقي زمنا تاريخيا يؤطر الحكاية في رواية "الأرض"، الزمن الذي عانى فيه الفلاحون وجاعوا وسجنوا وصدورت أراضيهم. وفي اختيار الزمن هدف سعى الكاتب من ورائه إلى إظهار بشاعته، وكشف معاناة الشعب المصري مع الدستور الجديد الذي جاءت به حكومة حزب الشعب و خرجت المظاهرات تطالب بإلغائه.

٥. اختيار الحوار

تعتبر رواية "الأرض" رواية متعددة الأصوات بمفهوم ميخائيل باختين للحوارية، حيث عمل فيها الشرقاوي من منطلق واقعيته الاشتراكية على ما يسميه الناقد الأمريكي ستيفان ماير دمقرطة السرد، وذلك باعتماد السرد التعددي الذي يتوارى فيه صوت الراوي لتظهر أصوات الشخصيات المختلفة باختلاف رؤياتها ووعيها، مما أعطى للرواية تعددا في مستويات اللغة المتحدث بها، وفي الحوار بين الشخصيات التي حافظ لها فيه الشرقاوي على لهجتها ومستوى ثقافتها وأخلاقها وعمرها، فأظهر بذلك تمايزاتها واختلاف رؤياتها للعالم، وتحقق للرواية بذلك تعارض مستويات الصياغة اللغوية ومنها "لجوء الكاتب إلى استعمال العامية والصيغ الشفوية في جزء هام من حوارات الرواية" (برادة، ١٩٩٦)، و"هو قبل كل شيء انتصار للذاكرة اللغوية في مظهرها الكلامي واختيار فني في رسم الشخصيات التي لا تنفصل عن تلفظاتها" (برادة، ١٩٩٦)، وبذلك شكل التعدد اللغوي سمة بارزة ومكونا جوهريا لرواية "الأرض" فرضه التزام الكاتب بتصوير الواقع الموضوعي باختلاف لغاته وأصواته ورؤياته في إطار تصوره لمفهوم الأدب الهادف المرتبط بالواقع وبغاية اجتماعية ترمي إلى تغييره.

لقد راهن الشرقاوي، في إطار واقعيته الاشتراكية، على أن يجعل شخوص الرواية تتكلم بلغتها التي تفكر بها وتستهملها في حياتها اليومية، والعامية في التيار الواقعي الاشتراكي لغة حية قادرة على التعبير عن المعاني والأحاسيس وعن هوية الشخصية بدقة لا تستطيع الفصحى أن تستوفيها، وهو ما يدفع القارئ إلى التآلف مع الشخصية ومع مشاعرها باعتبار قوة العامية التعبيرية وباعتبار الواقعية التي توفرها للحوار والاستجابة الواسعة من الجمهور القارئ "الذي يرى فيها عندئذ حياته الفعلية وينفعل بلغة تلك الحياة عندما يرى الفلاح مثلا يتحدث فعلا بلغة حياته الواقعية، وتتردد في تلك اللغة النبضات الحية التي يستجيب لها الجمهور، بحكم أنها اللغة المناسبة المنطلقة بمشاعر أهلها الذين لا يعرفون الفصحى إلا بعقولهم، وتضعف استجاباتهم العاطفية لها" (مندور، د.ت).

إن حوار الراوي مع وصيفة كمثل على التعدد اللغوي في الرواية حوار تظهر فيه بساطة المرأة القروية الساذجة التي لا تفهم لغة العواطف التي تكلم بها الراوي، وكان قد تعلمها من أفلام السينما والمجلات فتجيبه بسداجتها وبساطتها الريفية قائلة:

"يا اختي بلا وكسة!! انت بتكلم كده ليه يا اخويا؟.. والنبي ما أنا فاهمة منك حاجتن تخلق! أصل أنا ما اعرفش الكلام الإنجليزي اللي انت بتقوله ده" (الشرقاوي، د.ت: ٣١)، ثم تستطرد قائلة: "والنبي ما أنا فاهمة حاجة من الكلام اللي انت بتقوله.. حاكم أنا ما اعرفشي كلام المدارس والأفنديات" (الشرقاوي، د.ت: ٣١)

وفي لغة شخصية عبد الهادي وفي حواراته ما يوافق مستوى بساطته وثقافته، ودرجة انشداده لأرضه ولأهل القرية، والبواعث النفسية والعقلية التي تتحكم في تحديد مواقفه داخل الحدث. ولا يتم ذلك إلا حين يسمع صوته الحقيقي رافضا دائما ومتسائلا عن سبب ما يحدث من استغلال الإقطاع في مثل قوله بلغة ريفية يتكلمها الفلاح:

"يا ليلة غبرا يا اخواتي.. هو جرى ايه السنة دي؟" (الشرقاوي، د.ت: ٦٠)، وبلغة الشاب الريفي المندفع الثائر يتساءل مستنكرا "مين دا اللي ياخذ منا خمسة أيام من العشرة بتوعنه.. ليه.. وبقية المية رايحة فين؟" (الشرقاوي، د.ت: ٦٠)

بينما يقول الشيخ حسونة انطلاقا من ثقافته ومستوى وعيه: "وفي الأمريكيتين، يبحرقوا القطن ويبرموا البن في البحر بالقناطير وبيتلفوا قمح يكفي للقطر المصري كله" (الشرقاوي، د.ت: ٢٧٧). كلام يتعد عن كلام عبد الهادي و أبي سويلم بلهجته الريفية ويقترّب من الفصحى بتأثير الثقافة والتعلم، ولا يمكن أن تقوله شخصية أخرى ببناء فكري مختلف.

هكذا تتكلم كل شخصية في الرواية وفق ثقافتها وطبعتها، بلهجة محلية يصعب على القارئ أحيانا فهم بعض ألفاظها. ولذلك حين كتب محمد أفندي، المدرس في القرية، عريضة التظلم والشكوى نيابة عن أهلها بأسلوب المنفلوطي الذي لا يفهمه الفلاحون، جعله الشرقاوي عرضة للانتقاد، ولأن يقول عنه محمود بك: "مين ابن الحمار اللي كتب العريضة؟" (الشرقاوي، د.ت: ٨٣)، وكان محمد أبو سويلم قد اعترض قائلا: "أساليب من؟.. من؟.. وإيه اللي قالك تكتب بأساليب؟" (الشرقاوي، د.ت: ٨٥)، وكان محمد أفندي قد كتب في العريضة "إن الفلاحين إذا قطعت منهم خمسة أيام ري سيفترشون الغبراء ويلتحفون السماء"، وهذه الجملة من أساليب المنفلوطي البليغة" (الشرقاوي، د.ت: ٦٠)، وليست لغة الفلاحين، وفي ذلك موقف للشرقاوي يستشف من الرواية ومن السرد والحوار، إذ كان على المدرس أن يكتب بمثل ما يتكلم

به الفلاحون، بلغتهم التي تختلط فيها مشاعرهم، فتحقق التواصل المرغوب، أكثر مما إذا كتبت بغيرها كلغة المنفلوطي في أعماله الأدبية.

إن التعدد اللغوي في رواية "الأرض" تعدد للمناخات والشخوص والأصوات وأنماط الوعي والرؤيات للعالم، يقدمه الشرقاوي في واقعية تعتمد "تحوير اللغة العربية وتطويرها لالتقاط تبدلات العالم الخارجي وهواجس الذات واستيهامات اللاوعي" (برادة، ١٩٩٦) التي تقتضي أكثر من لغة وأكثر من صوت.

خاتمة

للإجابة عن سؤال: هل مثلت رواية "الأرض" أدب الواقعية الاشتراكية؟ وهل كان كاتبها أديبا ملتزما انطلاقا من رسالته ورؤيته الإيديولوجية؟ قامت الباحثة بقراءة الرواية قراءة موضوعاتية وقراءة فنية، واعتمدت الوصف والاستقراء. وقد اتضح أن الأحداث تطورت في فضاء يحكمه الاحتلال الإنجليزي وتقمع فيه الحريات، ويستغل فيه الإقطاعيون الفلاحين عبر مصادرة الأراضي وتقليل دورات الري، وعبر النزج بهم في السجون والمعتقلات حين الرفض والاحتجاج وحيث شتى صنوف التنكيل والتعذيب. يقدم الشرقاوي في بداية الرواية قطبي الصراع الدائر في القرية: الفلاحين والإقطاعيين، ويصرخ صوته في ثنايا الحكيم منددا بسياسة القمع والظلم والاستبداد، ومساندا كفاح الفلاحين ونضال العمال والطلبة، معلنا انتماءه لطبقة الفلاحين واندراجه الحر المسؤول في عالمها بمومه وصراعه وكفاحه وثورته، موجهها رسالته إلى العمال والفلاحين والمسحوقين بضرورة التمرد و الثورة، وعدم الاستسلام لآلة البطش الاقتصادية ولسياسة الاستعمار التوسعية، هذا السكوت والتراجع الذي يضمن لمستغليهم مزيدا من الاضطهاد ومراكمة الثروة وتعميق الفوارق الطبقيّة.

وقد خلصت الدراسة من خلال التحليل التطبيقي لملامح الواقعية الاشتراكية وقضية الالتزام في رواية "الأرض" إلى حقيقة تجسيدها لمعاني ومقتضيات ومفاهيم المنهج الواقعي، من حيث التزام الكاتب بمعارك شعبه والتحامه بطبقته، وتوجيهه الجماهير والفلاحين والطبقة الكادحة نحو الثورة. هي إذن رواية واقعية اشتراكية كما تبين من خلال عناصر تحليلها، شديدة الارتباط بالمجتمع وبالشعب المصري، وطبقة الفلاحين والعمال والكادحين، هي تشكيل وتنمية للوعي بلغة بسيطة خالية من الزخرف الذي قد يضيع وصول المعنى إلى الجماهير، وثورة على علاقات الاستغلال في مرحلة من مراحل تاريخ مصر التي عاشها كاتبها والتي جمعت في صراع طبقي بين الفلاحين وبين الإقطاع.

إن في اختيار رواية "الأرض" القرية فضاء للصراع الطبقي بين الفلاحين والإقطاع يؤكد ما تدعو إليه الواقعية الاشتراكية، حيث كان فيها الشرقاوي كاتباً وراوياً وشخصية من شخصها، يعلن فيها انتماءه الطبقي وانحيازه للفلاحين، ولقضايا الحرية والعدل والكرامة، ملتزماً بإعلاء شأن الإرادة الإنسانية ونضالها ضمن الإطار الجماعي الطبقي لصنع المصير وفق المادية التاريخية، كما ظهر متدخلا إيجابيا في سبيل تعزيز النضال والكفاح الثوري مؤمنا بانتصار الإرادة الجماهيرية، مجسدا إياها في النموذج البطولي والشخصية الإيجابية.

المراجع

- إدريس، سهيل. (١٩٧٧). مواقف وقضايا أدبية. بيروت: دار الآداب.
- الأمير، يسري. (٢٠٠٠). سهيل إدريس، تجديد الرسالة والأحلام. مجلة الآداب، (٩)، ٤-١٨.
- برادة، محمد. (١٩٩٦). أسئلة الرواية، أسئلة للنقد. الدار البيضاء: شركة الرابطة.
- الشرقاوي، عبد الرحمن. (د.ت). الأرض. القاهرة: مكتبة غريب.
- العالم، محمود أمين. (١٩٨٩). مفاهيم وقضايا إشكالية. القاهرة: دار الثقافة الجديدة.
- العالم، محمود أمين، وأنيس، عبد العظيم. (١٩٨٨). في الثقافة المصرية. الرباط: دار الأمان.
- مروة، حسين. (١٩٥٦). قضايا أدبية. دمشق: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع.
- مروة، حسين. (١٩٨٨). دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي. بيروت: مكتبة المعارف.
- مندور، محمد. (د.ت). الأدب وفنونه. القاهرة: دار نهضة مصر.
- مندور، محمد. (د.ت). الأدب ومذاهبه. القاهرة: دار نهضة مصر.
- مندور، محمد. (د.ت). معارك أدبية. القاهرة: دار نهضة مصر.

REFERENCES

- al-'Alim, M. A. (1989). *Mafahim Wa Qadaya Ishkaliyyah*. Qahirah: Dar al-Thaqafah al-Jadidah.
- al-'Alim, M. A., & Anis, A. A. (1988). *Fi al-Thaqafah al-Misriyyah*. al-Ribat: Dar al-Aman.
- al-Amir, Y. (2000). *Suhayl Idris, Tajdid al-Resalah Wa al-Ahlam*. Majallat al-Adab, (9), 4-18.
- al-Sharqawiyy, A. R. (t.t). *al-Ard*. al-Qahirah: Maktabat Gharib.
- Barrada, M. (1996). *As'ilat al-Riwayah, As'ilah li al-Naqd*. Dar al-Bayda: Sharikat al-Rabitah.
- Idris, S. (1977). *Mawaqif Wa Qadaya Adabiyyah*. Bayrut: Dar al-Adab.
- Mandur, M. (t.t). *al-Adab Wa Fununuh*. Qahirah: Dar Nahdat Misr.
- Mandur, M. (t.t). *al-Adab Wa Madhahibuh*. Qahirah: Dar Nahdat Misr.
- Mandur, M. (t.t). *Ma'ariq Adabiyyah*. Qahirah: Dar Nahdat Misr.
- Marwah, H. (1956). *Qadaya Adabiyyah*. Dimashq: Dar al-Fikr li al-Dirasat wa al-Nashr Wa al-Tawzi'
- Marwah, H. (1988). *Dirasat Naqdiyyah Fi Daw' al-Manhaj al-Waqi'i*. Bayrut: Maktabat al-Ma'arif.

إنكار

الآراء الواردة في هذه المقالة هي آراء المؤلف. القناطر: مجلة الدراسات الإسلامية العالمية لن تكون مسؤولة عن أي خسارة أو ضرر أو مسؤولية أخرى بسبب استخدام مضمون هذه المقالة.